7

الفصل السابع

الأمير عبد القادر الجزائرى والماسونية

نظرة إلى حياة عبد القادر الجزائرى:

ولد عبد القادر ابن سيد محى الدين الحسينى فى قبيلة «هاشم» فى السادس من سبتمبر ١٨٠٨م/ رجب ١٢٢٣هـ. وكان أبوه شيخاً لجماعة الصوفية «القادرية» فى غرب الجزائر. وظل لسنوات يحارب ضد الأتراك والقوات الفرنسية المحتلة أما عبد القادر فقد ظل طوال سنوات يتلقى تعليمه فى العلوم الدينية والقرآن والفلسفة والرياضات البدنية تحت إشراف والده. وطبقاً لما كتبه جرجى زيدان فقد قرأ رسائل أفلاطون وفيثاغورس وأرسطو كما تلقى بعض التعليم أيضا فى مجال الجغرافيا وعلم النجوم والتاريخ والأعشاب الطبية (العقاقير)(١). وقد ذهب إلى مصر فى سنة ١٨٢٧م/ ١٢٤٣هـ وتأثر هناك بتجديدات وتحديثات محمد على باشا وأثرت الأفكار والمعلومات التى حصلها هناك فى حياته فى مسيرة حياته وقد أثارت الرحلة التى قام بها عبد القادر إلى مكة والمدينة وبغداد فى سنة ١٨٢٨م/ ١٢٤٤هـ وزيارته لضريح عبد القادر الجيلانى مؤسس فرقة «القادرية» فى بغداد حماسه وأحاسيسه الدينية(٢).

وبعد أن وقعت مدينة الجزائر فى تاريخ الخامس من شهر يونيو ١٨٣٠م/ ١٢٤٦هـ فى أيدى المحتلين الفرنسيين قام والد عبد القادر بتنظيم مقاومة واسعة ضد الفرنسيين ولكن لم يمض كثير حتى ترك مكانه لابنه الذى كان قد أصبح جندياً شجاعاً وفارساً مغواراً ورامياً ماهراً، وقائداً مبرزاً، وخطيباً مفوهاً، وكاتباً وشاعراً، وهو نفسه الذى كانت القبائل التى نهضت لمقاومة الفرنسيين قد اختارته لزعامتها رسمياً فى عام ١٨٣٢م/ ١٢٤٨هـ. ومنذ ذلك الوقت أطلق عليه اسم «سلطان العرب» وكانت هذه الأحداث فى الحقيقة بداية لنهاية تاريخ حياة عبد القادر فى الجزائر.

فمنذ بداية قبول عبد القادر الجزائرى لزعامة الجزائريين فى مواجهة الاستعمار الفرنسى حتى اليوم الذى استفاد فيه من الفرصة الأخيرة ومما لديه من قوات فى مواجهة الفرنسيين ثم التسليم لهم بعد ذلك فى سنة ١٨٤٧م/ ١٤٦٣هـ عقب خيانة مولاى عبد الرحمان سلطان مراكش ظل لمدة خمسة عشر عاماً يحارب بأقصى ما يمكن وأشد ما لديه من حماس وضراوة حتى يدافع عن وطنه وأرضه وثقافته وحضارته الإسلامية ضد التوجه المزدوج الاستعمارى للحضارة البرجوازية الغربية وكان عبد القادر يتمتع بين أفراد شعبه بمكانة شعبية عالية وكان

قد أبدى فى قتاله للفرنسيين شجاعة فائقة واستقامة والتزاماً عسكرياً وصموداً مما اضطر معه دميشل (Desmichels) الجنرال الفرنسى أن يعترف به رسمياً كأمير للمؤمنين فى فبراير ١٨٣٤م/ ١٢٤٩هـ(٣).

وقد تعرض عبد القادر طوال هذه السنوات الطويلة لتقلبات كثيرة لا يمكن أن يتسع بحثنا الحالى للحديث عنها(٤). وأثبت بأسلوب واضح لا يمكن إنكاره للعالم النامى (المتخلف) وخاصة أهل دينه المسلمين أن التوجه الاستعمارى للحضارة الغربية البرجوازية هو توجه إجرامى لدرجة أنه للوصول إلى تحقيق أهدافه لا يتورع حتى عن القيام بقتل ووأد آلاف النساء والرجال والأطفال العرب الأبرياء فى مغارات الجبال وكهوفها(٥).

وعلى أى حال فقد وعد الفرنسيون عبد القادر الجزائرى بأنهم سوف يرسلونه إلى عكا فى فلسطين أو إلى الإسكندرية فى مصر ولكنهم لم يفوا بوعدهم هذا وأخذوا عبد القادر ومعه أسرته – وطبقا لقول جرجى زيدان كان برفقته ٨٠ شخصاً من أقاربه كان قد اختارهم هو بنفسه(٦) – إلى تولون (Toulon) فى جنوب شرقى فرنسا أولاً ثم إلى بو (Pau) فى جنوب غرب فرنسا ثم منها إلى أمبواز (Ambouse) فى وسط فرنسا حيث سجنوه فى قلعة هناك(٧). وظل عبد القادر الجزائرى سجيناً حتى الشهور الأخيرة من عام (١٨٥٢م/ ١٢٦٩هـ) حتى تم إطلاق سراحه بأمر من لويس نابليون (Louis Noapoleon) أو نابليون الثالث. وقد كتب فى رسالة يشكر فيها نابليون «لقد وعدنى الآخرون وعوداً لم يفوا بها قط وأنت أطلقت سراحى دون أن تقطع على نفسك عهداً بذلك، ولن أنسى جميلك هذا أبداً»(٨). ويذكر أحد الكتاب أن عبد القادر عند خروجه من السجن أقسم على أنه لن يعمل على إثارة الاضطرابات والثورات فى الجزائر بعد ذلك(٩). ولكن جرجى زيدان يروى طريقة إطلاق سراح عبد القادر الجزائرى من السجن على هذا النحو: «عندما كان نابليون الثالث يقوم بجولة فى بلاده ذهب إلى سجن عبد القادر وزاره بنفسه وأقسم له على أنه سوف يطلق سراحه وبعد مدة قام الامبراطور باستدعاء عبد القادر إلى باريس وقام عبد القادر بزيارة نابليون الثالث فى القصر الامبراطورى الفرنسى وبرفقته أربعة من خُيرة مقربيه وقام الإمبراطور باستقباله، وهناك تعهد عبد القادر بألا يعود إلى الجزائر مرة أخرى، كما تبادل كل الإمبراطور وعبد القادر الهدايا حتى أن عبد القادر قام بإهداء الإمبراطور فرساً عربياً أصيلاً وأهداه الإمبراطور سيفاً كتب عليه «من الإمبراطور نابليون الثالث إلى عبد القادر بن محى الدين»(١٠).

ومنذ ذلك الحين بدأت مرحلة تقاعد زعيم المقاومة الجزائرية فى المنفى. فبعد زيارته لباريس هذه ذهب أولاً فى سنة ١٨٥٣م/ ١٢٧٠هـ إلى بورصه (Bursa) فى شمال شرقى تركيا ثم إلى دمشق فى سنة ١٨٥٥م/ ١٢٧٢هـ وظل هناك حتى آخر حياته وقضى أوقاته فى أعمال الخير وإعانة الأرامل والعبادة والزهد. حيث ترك مؤلفات حول التصوف والفروسية. كما ألف كتاباً فلسفياً أيضا بعنوان «استدعاء اليقظة وتنبيه الغافلين»(١١). وأثناء إقامته فى

دمشق كان المتصوفة يعتبرونه من أهل الكشف وكانوا يعتبرونه فى مكانة محى الدين بن عربى (ت: ١٢٤٠م/ ٦٣٨هـ) والشيخ عبد الغنى النابلسى (ت: ١٧٣٠م/ ١١٤٣هـ) وكانا كلاهما من الصوفية المشهورين ودفنا فى دمشق(١٢). وفى النهاية توفى عبد القادر الجزائرى فى دمشق فى تاريخ ٢٦ مايو ١٨٨٣م/ رجب ١٣٠٠هـ. ودفن فى ضريح محى الدين بن عربى. ولكن فى عام ١٩٦٦م/ ١٣٤٥هـ ش تم نقل رفاته إلى الجزائر حيث أقيمت مراسم رسمية وشعبية لدفنه(١٣).

وجدير بالذكر أن عبد القادر الجزائرى بعد إطلاق سراحه من السجن كان يحصل على معاش سنوى من الحكومة الفرنسية قدره مائة ألف فرنك فرنسى(١٤). وقد اعتبر أحد كتاب «دائرة المعارف البريطانية الجديدة» «بريتانيكا» أن قيمة هذا المعاش كانت تعتبر فى ذلك الوقت مبلغاً ضخماً(١٥). ومنذ ذلك الحين لم يعد عبد القادر الجزائرى ذلك المناضل عدو فرنسا ولم يخط خطوة واحدة بعد ذلك فى طريق محاربة فرنسا والكفاح ضدها وظهر دوره واضحاً فى مصالحته فى مسيرة الأحداث الدامية التى وقعت فى دمشق سنة ١٨٦٠م/ ١٢٧٦هـ. وطبقاً لقول كوسه بريساك (Cosse-Brissac) فإن تورط عبد القادر وتدخله فى هذه الأحداث أثبت «وفائه الصادق» للفرنسيين بأسلوب خاص جداً(١٦).

علاقة عبد القادر الجزائرى بالماسونية الفرنسية:

والآن نرى كيف انضم عبد القادر الجزائرى إلى طائفة الماسون. وعلى ما يبدو أنه لم تظهر حتى الآن معلومات قيمة وجديرة بالملاحظة حول ماهية علاقة عبد القادر الجزائرى بالماسونية. فمنذ عدة سنوات كتبت صحيفة عربية باسم «الأنوار» مقالة بعنوان «الأمير عبد القادر الجزائرى والاستشراق» فى تاريخ ٢٤ مارس ١٩٨٣م/ فروردين ١٣٦٢هـ ش واعتبرت هذه المسألة محوطة بكثير من الغموض ووجهت الدعوة للباحثين بأنهم يجب عليهم أن يبحثوا فى الأفكار الماسونية لعبد القادر الجزائرى ويقارنوها لنشاطاته وأعماله المختلفة. وتوصى جريدة الأنوار بشكل خاص المؤرخين الباحثين بأنه لا يجب عليهم عند كتابة تاريخ حياة الأمير عبد القادر أن يتناولوا قصة علاقته بالماسونية بشكل مبهم فهى ترى أن التاريخ لا يمكن كتابته إلا بمواجهة الحقيقة(١٧).

ورغم أنه ربما لم تكن جريدة الأنوار على علم بالعديد من الأبحاث الأخرى التى ظهرت قبل ذلك حول هذا الجانب من حياة عبد القادر الجزائرى ولكن بشكل عام فإن رأى الجريدة يعتبر سليماً تماماً. فهذه الأبحاث لم تتناول ماهية النشاط الماسونى لعبد القادر الجزائرى بأسلوب شامل لا يعتريه الشك. ولكن مع هذا كله يجب أن نتقبل أن الأبحاث التى تمت وظهرت خلال السنوات الأخيرة أوضحت الكثير من النقاط الغامضة فى هذا الموضوع ومهدت الطريق أمام أبحاث أكثر قيمة وأكثر قبولاً. فالباحثون الخبراء بتاريخ الجزائر وحياة عبد القادر الجزائرى

لم يتحدثوا حول علاقته وتعرفه بهذه المنظمة قبل حملة الفرنسيين على الجزائر وحتى طوال صراعه وكفاحه المستمر وأبيه ضدهم. وأثناء فترة دراسته كانت تعليماته كلها محدودة فى إطار العلوم الإسلامية والقرآن وكما يبدو أنه طوال كفاحه ضد فرنسا لم يكن لديه الفرصة أن يتعرف على الماسونية. وبعض الباحثين الفرنسيين أمثال جرارد بيبوندا (Gerard Peypounda) ومارسل امريت (Marcel Emerit) يرجعون بداية تعرف عبد القادر الجزائرى على قواعد وتقاليد الماسونية إلى الفترة التى كان فيها سجينا فى قلعة مدينة بو (Pau) الفرنسية. وقد كتب بيبوندا مقالة فى سنة ١٩٥٤م/١٣٣٣هـ ش فى مجلة (La Qustriene Republique) الجمهورية الرابعة تحت عنوان «عبدالقادر فى مدينة بو»(١٨) تحدث فيها حول تعرف عبد القادر الجزائرى على الماسونية فى تلك المدينة بشكل جاد. ويرى امريت الأستاذ فى جامعة ليل (Lille) الفرنسية أن عبد القادر لم يكن يستطيع حتى عندما انتهى به المطاف فى دمشق أن يتعرف على الأفكار الغربية ومنها الماسونية وذلك لأنه فى هذا الجو الشرقى تماماً الذى كان قد أحاط به كان ذلك التعرف من غير الممكن. ويتابع امريت رأيه هذا على النحو التالى:

«لقد استقر عبد القادر فى سنة ١٨٤٨م/ ١٢٦٥هـ فى قلعة بو وفى تلك الأثناء كان مدير القلعة شخص يدعى دلاروش (Delaroche) كان من الماسون. وكان هذا المدير قد أعد إحدى غرف القلعة لعقد الجلسات المعتادة لمحفل «مهد هنرى الرابع» (.La Bercea d Hemri IV) حتى أن أخلاف السيد دلاروش أمثال العقيد زاراكوزا (Zaragoza) ومساعده جارا وندله (Garondelet) كانا كلاهما أيضاً من الماسون. ومن الواضح أن عبد القادر لم يكن يعرف اللغة الفرنسية وتعرفه على الماسونية كان مقيداً بوجود شخص يعرف لغة عبد القادر التى هى العربية بالطبع، وقد لعب هذا الدور أحد خدام فرنسا القدامى ويدعى اسكوفيه (Escaffier).

«خلال الحرب التى دارت يوم ٢٢ سبتمبر ١٨٤٣م/ ١٢٥٩هـ بين القوات الفرنسية والجنود النظاميين التابعين لعبد القادر الجزائرى بالقرب من مقبرة سيدى يوسف أبدى اسكوفية الذى كان نافخاً للبوق فى جيش الفرنسيين شجاعة فائقة لإنقاذ حياة قائده كابتن (Cotte) مما تسبب فى وقوعه أسيراً بعد ذلك فى يد قوات. وتقديراً لهذه البطولات والتضحيات قرر الفرنسيون منح اسكوفيه نوط الشرف «العسكرى» وقاموا بمباحثات مع عبد القادر لمنح هذا النوط لأسكوفيه فساعدهم على ذلك وجمع حرسه الخاص وقال «إننى أقدر الشهامة والبطولة واحترمها حتى ولو كانت من أعدائى». وبعد ذلك بعام واحد تم إطلاق سراح اسكوفيه على يد عبد القادر الجزائرى أثناء تبادل الأسرى وتم تسليمه للفرنسين.

«وبعد أن انتهت خدمة اسكوفيه فى الجزائر ذهب إلى فرنسا وأسندت إليه بعض الأعمال الحكومية، ولكن عندما علم أن البطل عبد القادر – الذى كان يقدر بطولته ويعرف قدره – يوجد فى سجن مدينة بو طلب أن يكون من المحيطين به فتعاطفوا مع طلب اسكوفية وتم

إيفاده كحارس لقلعة بو، وظل يعمل هناك حتى سنة ١٨٧١م/ ١٢٨٨هـ. ونضيف هنا أيضا أن اسكوفيه نفسه كان ماسونياً أيضا وكان يحمل على عاتقه مسئولية تنظيف غرفة جلسات الماسون واجتماعاتهم وتجهيزها فى القلعة. وكان يستطيع أن يرى الأمير عبد القادر كل يوم وأن يتحدث معه حول ما كان يدعيه الماسون من أخوة عالمية وأعمال خيرية ومحبة إنسانية، كما أننا نعلم أن الأمير عبد القادر طلب فى الليلة السابقة على انتقاله من سجن مدينة بو إلى سجن مدينة أمبواز أن يقابل السيد موكور (Maucor). وكان السيد موكور هذا ضباطاً سابقاً فى القوات الفرنسية وكان ماسونياً أيضا وكان يبدى تعاطفاً شديداً مع عبد القادر.

«وعلى ما يبدو أن عبد القادر الجزائرى لم ينس دروس وتعاليم اسكوفيه نافخ النفير فى الجيش الفرنسى. فقد قام أثناء فترة إقامته فى دمشق بتبادل الرسائل مع رؤساء المحفل الماسونى «المشرق الفرنسى الأعظم». وقد كتب جوستاف دشيال (Gustave d>Eichthal) فى تاريخ ٢٤ يونيو ١٨٦١م/ ١٢٧٨هـ إلى صديقه أوربن (Urbain) حول علاقة عبد القادر الجزائرى بالماسونية وأضاف إن انضمام عبد القادر إلى طائفة الأخوة الماسونية قد أعلن كأمر مؤكد تماماً على نطاق واسع. وحول هذا الموضوع نشرت مجلة (L>Dpinion Nationale) – العقيدة القومية – مقالة أيضا(١٩).

وفى مقابل هذا الرأى، يرى السيد ياكونو رأياً آخر وخاصة أنه لا يقبل الموضوع الخاص ببداية تعرف عبد القادر على الماسونية الذى يشير إليه أمريت، ويعتبر الكتابات المتعلقة بالنشاط الماسونى فى عام ١٨٤٨م/ ١٢٦٥هـ والخاصة بتعرف عبد القادر الجزائرى على الماسونية تخلو من أية قيمة. كما يصف مسألة علاقة اسكوفيه نافخ النفير بالماسونية مثيرة للتساؤل، كما يعتبر لقاء عبد القادر الجزائرى السيد موكور يخلو من أية أهمية وذلك لأن موكور كان يبلغ من العمر فى ذلك الوقت ٢٢ عاماً ولم يكن من الممكن أن تضمه الماسونية فى دائرة حماسه وثورة دعاياها. ولكن على اى حال فإن ياكونو يذكر أنه قد تبودلت الرسائل فى عام ١٨٦١م/ ١٢٧٨هـ بين أخوة الماسونية فى «محفل هنرى الرابع» وعبد القادر الجزائرى حول عضويته فى الماسونية (انظر ملحق البحث) (٢٠).

عبد القادر الجزائرى وثورة سنة ١٨٦٠م/ ١٢٧٧هـ فى دمشق:

بالإطلاع على آراء ووجهات نظر الباحثين الفرنسيين أمريت وياكونو فإن حكمنا لا يمكن أن يكون ضد أمريت، ويبدو أن آراءه واستنتاجاته لم تواجه بآراء واستنتاجات أكثر ثباتاً من قبل ياكونو. وما يتضح هو أى عبد القادر الجزائرى بدأ علاقته الرسمية بالماسونية وعضويته فى طائفة الماسون بعد أحداث عام ١٨٦٠م/ ١٢٧٧هـ فى دمشق ولهذا فإن التعرف باختصار على هذه الأحداث ربما يكون مفيداً هنا فهذه الأحداث الدامية التى بدأت من شمال لبنان لها أسباب طويلة ودوافع معقدة. فمن ناحية كان الفلاحون المزارعون الغاضبون يحاولون أن يتحرروا

من آثار نظام الاقطاع المتخلفة ومن ناحية أخرى كان رجال الدين وخاصة زعماء الجماعات المارونية المسيحية يبحثون عن وسيلة لبسط ونشر نطاق نفوذهم وسلطتهم السياسية. فقد اتحدت هاتان الجماعتان ووضعت أيديهما فى أيدى البعض وقاموا بثورة وتمرد ضد كبار ملاك الأراضى. وفى سنة ١٨٥٧م/ ١٢٧٤هـ قام المزارعون المارون فى شمال لبنان بتحريض من زعمائهم الدينيين بثورة ضد ملاك الأراضى المارون، وامتد نطاق هذه الثورة أيضا إلى جنوب لبنان وذلك لأنه فى هذا الجزء من لبنان كان عدد كبير من الفلاحين المسيحيين يعملون لصالح ملاك الأراضى المسلمين درزى المذهب، ومن هذه النقطة بدت هذه الاضطرابات والصدامات وكأنها صراع مذهبى وحرب دينية بين المسلمين والمسيحيين. ولم تتحرك الحكومة التركية ولو خطوة واحدة فى هذا الموضوع وقامت حكومتا انجلترا وفرنسا اللتان كانتا تفكران فى بسط نفوذهما فى لبنان بمضاعفة وتوسيع نطاق هذه الثورة بأساليب خاصة.

وعقب هذه الأحداث فى ربيع سنة ١٨٦٠م/ ١٢٧٦هـ قام الفلاحون المسلمون بالتنسيق مع كبار ملاك الأراضى المسلمين بهجوم دامى وشامل على الفلاحين والأعيان ورجال الدين المسيحيين وخلال هذه الأحداث أبدى المسيحيون فى كثير من المواضع شهامة وشجاعة فائقة وأحيانا كانوا يقومون بالقتل والقصاص بأساليب إجرامية أيضا. ولكن فى النهاية اضطر آلاف الأشخاص من المسيحيين للهرب أو اللجوء إلى مدن أخرى بعد أن مات الآلاف منهم. ورداً على هذه الأحداث قام المسلمون فى دمشق أيضا بمهاجمة المسيحيين فيها وقتلوا عدداً كبيراً منهم. وقد وصف جورج انطونيوس الخراب والدمار والأضرار التى نجمت عن هذه السلسلة من الاضطرابات والثورات على أنه كان كبيراً للغاية، كما ذكر أن عدد القتلى وصل إلى أحد عشر ألف شخص(٢١).

فى مسيرة هذه الأحداث الدامية فى دمشق كان الأمير عبد القادر الجزائرى هو الذى أطلق سراح القنصل الفرنسى بتدخله ووساطته ومثابرته مستغلاً فى ذلك النفوذ والاحترام الذى كان له بين العرب وخاصة أهل دمشق كما أنقذ الآلاف من المسيحيين الذين كانوا هدفاً لهجوم المسلمين الدروز من ألموت المحقق(٢٢).

وربما يكون من الضرورى أن نورد هنا مقتطفاً من حديث جورجى زيدان للاطلاع على كيفية وساطة عبد القادر الجزائرى فى هذا الموضوع، فجرجى زيدان الذى أعد تقريره حول هذا الموضوع مستفيداً من الكتاب المخطوط لنعمان افندى قساطلى يذكر: «بمجرد أن سمع عبد القادر الجزائرى فى يوم التاسع من يونيو ١٨٦٠م/ ذى الحجة ١٢٧٦هـ أن المسيحيين يتعرضون لمذابح عامة انزعج بشدة ودفع على الفور المضاربة المقيمين فى دمشق لإطلاق سراح المسيحيين. فقام المضاربة بشجاعة ملحوظة بالنزول إلى الميادين وبذلوا أقصى الجهد وأخذوا ما استطاعوا من النساء والرجال والأطفال إلى منزل الأمير عبد القادر الجزائرى وعندما أدرك المسيحيون أن الأمير عبد القادر لديه النية لمساعدتهم توجهوا إلى منزله ولجأوا

إليه إلى درجة أن منزل الأمير امتلأ عن آخره باللاجئين. واضطر عبد القادر إلى أن يعد منازل أخرى إلى جانب منزله لاستقبال اللاجئين والإقامة بها وكان من بين هؤلاء اللاجئين قناصل الدول الأجنبية أيضا. وطوال مدة إقامة اللاجئين فى هذه المنازل كان عبد القادر الجزائرى وشخصان من مساعديه – محمود افندى حمزه وأخوه أسعدى أفندى يقومون بتوفير احتياجاتهم ومدهم بالغذاء والمؤن.

«وفى اليوم الثالث من الاضطرابات والمذابح توجه مثيرو الاضطرابات إلى منزل الأمير عبد القادر حتى يضعوا أيديهم على المسيحيين ولكن عبد القادر والرجال المساعدين له استطاعوا ردهم وطردهم فطلب محافظ دمشق من المسيحيين أن يقيموا فى حصن حتى يكونوا فى مأمن وعقب هذا الكلام الذى صدر من المحافظ تجمع فى ذلك الحصن حوالى خمسة آلاف شخص ولكن المسلمين الدروز استعدوا للهجوم عليهم. وفى هذه الأثناء تدخل الأمير عبد القادر ورفاقه وقاموا بتهديد الثائرين بالسلاح واستطاعوا بذلك أن يثنوهم عن عزمهم. وقد استمر هذا الاضطراب لمدة أسبوع كامل ولم يتراجع الأمير عبد القادر مطلقا عن مساعدة المسيحيين وحماية أرواحهم وتضميد جروحهم. وكان مجموع المسيحيين الذين كانوا فى حماية الأمير عبد القادر حوالى أربعة آلاف أما الذين لجأوا إلى الحصن فكان مجموعهم ستة آلاف شخص»(٢٣).

تعاطف الماسون والفرنسيين مع عبد القادر وتقربهم منه:

وعلى أى حال فقد أصبحت هذه الوساطة والشهامة والتضحية التى أبداها عبد القادر الجزائرى سبباً فى أن تقدره المحافل المسيحية الأوروبية وغير الأوروبية وغير الأوروبية أكثر من ذى قبل فقد قامت الحكومة الفرنسية بمنحه وشاح «الافتخار» ((Legion of Honor Legion d>honear)) تقديراً لخدماته. وزادت معاشه إلى ١٥٠ ألف فرنك فرنسى(٢٤). ويصف جرجى زيدان – الكاتب الماسونى اللبنانى المعاصر لعبد القادر – بعد ذكره لعضوية عبد القادر فى «محفل الأهرام» (انظر نهاية هذا البحث) على أنه «المشهور بالفضل والحلم وعزة النفس» ويسمى هذه الخصائص الأخلاقية «الصفات الماسونية الحقة».

وضمن ذكره علو همة عبد القادر وحزمه فى الحرب مع الفرنسيين فى الجزائر يمتدح بشكل خاص كرم أخلاقه وشهامته طوال أحداث الشام المشهورة التى قام فيها بحماية الآلاف من المسيحيين وأدخلهم فى جواره(٢٥). ومنذ ذلك الوقت أجمع الماسون على ضرورة الاستفادة من مكانة عبد القادر الجزائرى وسيرته الحسنة وقام عدد كبير من المحافل الماسونية بإرسال خطابات شكر وتهنئة له(٢٦).

وكان تاريخ كفاح عبد القادر الجزائرى ضد الاستعمار الفرنسى الواضح وارتباطه العميق بالدين الإسلامى موضعاً لتأييد جميع العلماء الذين تناولوا حياته فقد عرف دائما على أنه بطل

الأمة العربية ووطنى عظيم وعنيد وجزائرى مخلص. ولهذا فإن أى قارئ يؤيد الحركات الإسلامية المناهضة للاستعمار ويناصرها له الحق فى أن يتعجب من العلاقة أو الصلة التى ربطت هذه الشخصية الشهيرة بطائفة الماسونية ويفكر فى هذا الأمر كثيراً. ولكن على الرغم من أهمية الموضوع فهناك كتاب كثيرون لا نعرفهم تحدثوا حول هذا الموضوع وكتبوا عنه حتى السنوات الأخيرة. وما يبدو هو أن عبد القادر الجزائرى خلال سنوات العقد الخامس من القرن التاسع عشر وما بعدها، لا يمكن أن يتشابه تماما مع عبد القادر الجزائرى خلال السنوات ١٣٨٠: ١٨٤٧م/ ١٢٤٦: ١٢٦٤هـ. وقد سلم نفسه للفرنسيين فى الوقت الذى كانت القبائل الموالية له والوفية لرسالته قد أخذت تسلم للعدو الواحدة تلو الأخرى تحت ضغط الحرب والصراع المسلح. ولم يلبّ ملك المغرب او القبائل التابعة له طلب عبد القادر للمساعدة التلبية المناسبة ولهذا فلم يرَ عبد القادر سبيلاً له سوى التسليم للعدو الذى ظل هو وأبوه يحاربه طوال سبعة عشر عاما. وفى تلك الأثناء ركز العدو المنتصر على مصالحه الخاصة – ومنها أن عبد القادر كان قد عرف فى العالم العربى كشخصية بارزة وبطل محبوب ومنح الحياة لمثل هذا الرجل أو العفو عنه سوف يقلل من سوء سمعة الحكومة الفرنسية بين المسلمين والعرب – حيث سمح له أن يواصل حياته. وبعد أن تم إلقاؤه فى سجن مدينة بو تم تكليف شخص بحراسته على درجة عالية من الاعتقاد به والإيمان فيه وكما ذكرنا من قبل فإن هذا الشخص من المحتمل أن يكون هو الذى عرف عبد القادر الجزائرى على تقاليد الماسونية وقيمها ورسومها ومهد تفكيره لقبول هذه القيم والمعانى. والأهم من هذا كله أنه بعد إطلاق سراحه من مختلف السجون الفرنسية تم تقرير مرتب شهرى له بأمر من الحكومة الفرنسية. ويبدو أن عبد القادر الجزائرى عند خروجه من السجن وبناء على كل هذه الأسباب والعلل كان قد فقد مميزاته السابقة كمحارب نشط فعال ومناضل صعب المراس ضد القوات الفرنسية إلى درجة أنه أخذ معاشاً دورياً من حكومة قامت لسنوات طوال بمذابح لشعبه وظلت مسيطرة عليه تحت نير استغلالها واستعمارها وطردته هو أيضا بعد سنوات من السجن من وطنه الأم وأرض أجداده.

وفى نفس الوقت الذى كانت تجرى فيه أحداث دمشق الدموية كان عبد القادر الجزائرى ما يزال يقضى فترة تقاعده فى المنفى وكان شخصا زاهدا للغاية ومسالماً يتألم من عمليات المذابح والقتل والتشريد التى لم تكن لتترك ذكرى طيبة فى نفسه وكانت جهوده من أجل إنقاذ أرواح المسيحيين والقنصل الفرنسى فى دمشق ماثلة أمام أعين الماسون ونتيجة لذلك وجدوا فى عبد القادر الجزائرى شخصية إنسانية ووجدوا قلبه مليئاً بالصداقة والمسالمة وهى نفس الخصائص والمميزات التى كانت تدعيها منظمات الماسونية العالمية دائما بهدف الوصول إلى تحقيق أهداف التوجه الاستعمارى للحضارة الغربية البرجوازية المزوجة الوجهة.

وقد كتب كداش أن «محفل هنرى الرابع» الذى كان يتبع «المشرق الفرنى الأعظم» أرسل رسالة إلى عبد القادر الجزائرى بعد أحداث دمشق بحوالى خمسة أشهر وبالضبط بتاريخ ١٦

نوفمبر ١٨٦٠م/ ١٢٧٧هـ وضمن التحدث عن خصوصيات الماسونية من تشجيع التدين ومحبة البشر والأحاسيس الإنسانية قدم له نوطاً خاصاً بذلك المحفل واقترح عليه أن يضع نفسه فى أحضان هذه المنظمة(٢٧). ويرى ياكونو أن عبد القادر كتب أول رسالة له يرد بها على «محفل هنرى الرابع» فى فبراير ١٨٦١م/ ١٢٧٧هـ وقد ظهر نص هذه الرسالة فى مجلة المشرق الأعظم «Bulletin du Grand» فى تاريخ أغسطس وسبتمبر من نفس العام، وقد ورد فيها ما يلى: «إن قراركم هذا بأن تعقدوا علاقة وترابطاً بين أفكارى وأفكاركم ليعتبر بالنسبة لى أحد نعم الله وأفضاله علىّ التى لم أتوصل إليها حتى الآن»(٢٨).

وربما يكون من المفيد هنا أن نلقى نظرة أعمق على ما جاء فى الرسائل المتبادلة بين عبد القادر الجزائرى و»محفل هنرى الرابع» فقد جاء فى رسالة «محفل هنرى الرابع» إلى عبد القادر الجزائرى ما يلى: «نعم، إنكم لتمثلون بحق الأمة العربية القوية وتعتبرون نموذجاً صادقاً لها، تلك الأمة التى تعتبر أوروبا حضارتها وعلمها مرهون بها إلى حد كبير. لقد أثبتم بأعمالكم وتصرفاتكم العظيمة أن الأصل العربى والجنس العربى لم يفقد قيمته الذاتية وأصالته ولم يصب بالتخلف والرجعية ورغم أنه يعيش فى حالة من الهدوء والسكون الآن فإنه يمكنه أن يثور وأن ينهض للقيام بأعمال عظيمة بزعامة رجل ذكى وقدير مثلكم فبعد الحروب المتواصلة التى قمتم بها بكل عزة وفخار ضد فرنسا التى كانت فى ذلك الوقت عدواً لكم والتى أعجبت بها فرنسا فى ذلك الوقت، كما أنكم قمتم أيضا بكل عظمة وفدائية وتسامح بالإشادة بفرنسا وتمجيدها ولقد عبرتم عن هذه الخصال الحميدة كدليل على تمدنكم وحضارتكم. فالعمريون وأمثال ابن رشد والفارابى هم أشخاص رُفعت أمتكم بحق رأسها عاليا بهم كمحاربين وقادة وعلماء وفلاسفة أما أنتم فقد جمعتم كل هذه الخصائص والصفات فى شخصكم الموقر بشكل منفرد»(٢٩).

وفى ذلك الوقت لم يكن عدد المسلمين الذين انضموا إلى طائفة الماسونية كبيراً جداً وذلك لأن الشرقيين لم يكونوا ينظرون بعين الارتياح لهذه المنظمة. ولهذا كانت الماسونية تحاول باحتوائها شخصيات بارزة من المسلمين مثل عبد القادر الجزائرى بين أعضائها أن توسع من نفوذها وتنشره فى العالم الإسلامى. ويُعبر «محفل هنرى الرابع» عن هذا الهدف والجهد على النحو التالى:

«إن عبد القادر الجزائرى يجب أن ينير شعلة الحقيقة فهو بعد أن أنار عقول مواطنيه الأوفياء وأرشدهم إلى الصواب فإنه سوف يأمرهم بدوره أن يعلموا الناس بالقول والفعل الحسن المحبة والتضامن وأن يلقنوهم تعاليم المحبة ويؤكدون هذه التعاليم ويعمقونها عن طريق ذكر أمثلة ونماذج بشكل متكرر ومستمر وسوف يكون تأثيرهم على أجيال (من الشعب المسلم) مثل الماء الذى يتساقط قطرة قطرة ولكن دون توقف على الاطلاق ويحدث حفرة عميقة فوق أشد أنواع الصخر صلابة وسوف يوضح عبد القادر الجزائرى بأسلوب واضح يبعد عن الغموض أن الهدف النهائى هو تحقيق الحياة الاجتماعية مرة أخرى للأمة العربية والجنس العربى»(٣٠).

ويبدو أن هناك أهداف سياسية واستعمارية قد اختفت خلف كلمة من هذه الكلمات والمفاهيم التى وردت فى الحديث السابق ولكن عبد القادر الجزائرى لم يكن يتقبل تلك الأهداف التى كانت تقترحها الماسونية فى فكره بشكل راسخ وكأنه كان بعيداً إلى حد ما فى الأساس عن وجهة نظر وتحليل واع عن التاريخ والفلسفة ومسيرة النشاط الماسونى أو أنه على الأقل كان فى بداية عهده بعلاقته بالماسونية على اعتقاد إلى حد ما على الأقل بما كانت تدعيه تلك المنظمة فى إطار عبادة الله ومحبة البشر والصدق والصراحة والاستقامة والقيم المعنوية الأخرى ولهذا ولأن عبد القادر الجزائرى كان مسلماً زاهداً وعلى إيمان راسخ فلم يكن يرى أن الأكاذيب التى تروجها الماسونية تتعارض كثيراً مع معتقداته الدينية.

وربما يكون جديراً بالذكر هنا أن الإيمان بالله كان من البداية من الشروط الأساسية للعضوية فى الماسونية، ولكن فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر تراجع الفرنسيون عن مراعاة هذا الشرط الأساسى، ولأن الفرنسيين التابعين للمشرق الفرنسى الأعظم كانوا من المتحررين ومناهضى رجال الدين الكاثوليك وأصبحت محافلهم قواعد للمحادثات والمباحثات الدينية. وفى سنة ١٨٧٧م/ ١٢٩٤هـ ألغى الفرنسيون شرط الإيمان بالله من شروط العضوية فى الماسونية وعللوا ذلك بأن الماسونية ليست ديناً وليس ضرورياً لأى أحد يريد العضوية فيها أن يكون مؤمنا بالله، وقد أصبح موقفهم هذا سبباً فى انفصال «المحفل الإنجليزى المتحد الأعظم» (United Grand Lodge of England) عن المحفل الفرنسى الأعظم وكانت نتيجة هذه الأحداث أن وصمت الماسونية التابعة لفرنسا بالمادية الإلحادية(٣١).

اسئلة (محفل هنرى الرابع) لعبد القادر الجزائرى:

كما هو واضح فإن إلغاء شرط الإيمان بالخالق من دستور محفل «الشرق الأعظم الفرنسى» يعود إلى النصف الثانى من السبعينيات فى القرن التاسع عشر، بينما أن عبد القادر الجزائرى قبل هذا التغيير بستة عشر عاماً اعتبر الانضمام إلى «محفل هنرى الرابع» من الهبات الإلهية ونتيجة لذلك لم تكن معتقدات ورسوم وتقاليد الماسونية قد اكتسبت بعد أى نوع من الخصائص أو السمات الشاذة التى تتعارض مع العقائد والمعتقدات التقليدية لعبد القادر الجزائرى ولهذا السبب عندما وجه «محفل هنرى الرابع» بعض الأسئلة لعبد القادر الجزائرى وطالبه بأن يرد عليها ردود واضحة، قام بتنظيم ردوده وإجاباته فى إطار الفلسفة والمعتقدات الإسلامية وأكد وفاءه وإخلاصه للدين الإسلامى بأسلوب واضح وقوى ولم يستبعد هذا المحفل أيضا تلك الإجابات عن دائرة خصائص الماسونية ومعتقداتها.

فقد سأل عبد القادر عن واجبات الإنسان تجاه الخالق فأجاب: إن الإنسان عليه أن يعظم الخالق الأعظم ويحبه وأن يسارع فى فعل وأداء كل ما من شأنه أن يرضى الله وكل ما أمره الله به أن يفعله وأن يتقرب دائما فى أعماله للخالق الأعظم وأن يتخذ من صفات الخالق نموذجاً

للصفات التى يجب أن يتحلى بها كعبد لهذا الخالق وتتلخص هذه الصفات فى الرحمة والعفو عند المقدرة، ومد يد العون للمحتاج، والكرم، والعلم، والعدل واللطف وما إلى ذلك. إن الإنسان يجب أن يبتغى وجه الله فى كل أعماله ويجتهد فى أن يخضع لإرادته وينفذ أوامره ونواهيه، ويسعد بكل ما يحدث له بقضاء الله وقدره وأن يؤمن بأن كل النعم العظيمة التى وهبها الله له لا يعدلها أى شيء على الإطلاق وأن الإنسان لا يستطيع أن يمنع ما قدره الله له فى مستقبله.

وكان السؤال الثانى الذى وجهه «محفل هنرى الرابع» لعبد القادر الجزائرى عن واجبات الإنسان تجاه جميع البشر وتجاه بنى جنسه، وقال فى رده: إن جميع القوانين تقوم على أساسين: أولهما تكريم الله، وثانيهما الرحمة والعطف على المخلوقات، ويجب على الإنسان أن يفكر دائماً أن روحه وكل ما يتعلق به ينبع من مكان واحد ورداً على نفس هذا السؤال تحدث عبد القادر الجزائرى عن روح الإنسان ولهذا وجه إليه سؤال آخر حول واجب الإنسان تجاه روحه ونفسه فرد قائلاً: إن الإنسان يجب أن يتحلى بالطهارة ويبتعد عن الدنس وأن يفضل المبادئ الأربعة العلم والشجاعة والمحبة والعدل على بقية المبادئ. وكان السؤال الرابع الذى وجهه «محفل هنرى الرابع» لعبد القادر الجزائرى حول خلود الروح. وواضح أنه أجاب بأن الروح ذات معنوية وهى ليست جسم مركب وليست عرضة للفناء والزوال ويمكن أن نلخص تعريفها فى كلمة واحدة أن روح الإنسان خالدة. وكان السؤال الخامس حول أحد المبادئ الثلاثة التى تنادى بها الماسونية دائما: وهو أن البشر متساوون أمام الله. فرد عبد القادر الجزائرى بأن البشر متساوون من حيث وجودهم على الرغم من الاختلاف الظاهر بينهم من ناحية الشكل والاسم.

وكان آخر سؤال وجه لعبد القادر الجزائرى يرتبط بشكل أكثر بمبدأ آخر من مبادئ الماسونية الثلاثة وهو الأخوة وكان السؤال على هذا النحو: ما هو مفهومك حول مسألة تطبيق مبدأ الإخوة؟ فرد عبد القادر على هذا السؤال بإجابة مطولة ولكن كان ما تعلق منها بمحتوى السؤال حول مبدأ الحرابة، حيث قال:

«أما فيما يتعلق بالحرابة وتطبيقها فإنى أقول إنه لا يجب محاربة أتباع أى مذهب أو دين لإجبارهم بالقوة وحد السيف على التخلى عن مذهبهم ودينهم، فجميع القوانين السماوية لها رأى واحد فى هذا الموضوع. والجهلة – سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين – يعتقدون أن المسلمين يحاربون المسيحيين وأتباع الديانات الأخرى لكى يجبروهم فقط على ترك دينهم ومعتقداتهم وقبول الإسلام والدخول فيه وهذا اعتقاد خاطئ وغير صحيح»(٣٢).

نشاط الماسونية فى دمشق واستغلال الفرنسيين:

ومنذ ذلك الحين بدأ عبد القادر الجزائرى يقوم بنفسه بسلسلة من النشاط الماسونى. فقد سافر إلى الحج فى سنة ١٢٨١هـ/١٨٦٤م ومن هناك توجه إلى مصر، وفى شهر يونيو من نفس العام التحق فى الإسكندرية بـ«محفل الأهرام» الذى كان محفلاً ماسونياً تابعاً «للمشرق الأعظم الفرنسى».

يقول «على الوردى» إن محفل الأهرام قد ارتفع شأنه بقبوله لعضوية عبد القادر الجزائرى(٣٣)، ويذكر «إبراهيم آلفت» أن هذا المحفل قد أدخل عبد القادر الجزائرى إلى الماسونية كمكافأة على حسن تصرفه فى الاضطرابات التى حدثت فى سوريه»(٣٤).

كما أورد «امريت» أن انضمام الأمير عبد القادر الجزائرى إلى الماسونية قد أثر تأثيراً كبيراً على ذلك الجو المتحرر الذى تشجعه الماسونية وأن «محفل الشرق الأعظم الفرنسى» أحس بفخر وشرف لم يفقده بعد ذلك(٣٥). وفى نفس العام ١٢٨١هـ/١٨٦٤م قام محفل الماسونية فى مدينة «بو» التى كان عبد القادر سجينا بها من قبل بإرسال بطاقة تهنئة إليه بهذه المناسبة واختاره كعضو شرف وأرسل ممثلين عنه إلى باريس للاشتراك فى الحفل الذى أقامه «محفل الشرق الأعظم الفرنسى» على شرف عبد القادر الجزائرى(٣٦).

وكما ذكرنا من قبل(٣٧)، فإن عبد القادر بعد عودته من رحلة الحج قام بنفسه بتأسيس جمعية ماسونية تابعة «للمحفل الإيطالى الأعظم» باسم «محفل سوريه» فى مدينة دمشق. وقد أدى ارتباط عبد القادر الجزائرى بالماسونية وحبه لها إلى أن يسحب أولاده أيضا إلى تلك الطائفة. وقد وصل أبناؤه فى نفس المحفل «محفل سوريه» فى مدينة دمشق. وقد أدى ارتباط عبد القادر الجزائرى بالماسونية وحبه لها إلى أن يسحب أولاده أيضا إلى تلك الطائفة. وقد وصل أبناؤه فى نفس المحفل «محفل سوريه» مرات عديدة إلى درجة أستاذ أعظم، وقد ترأس أحد أحفاده وكان يسمى محمد سعيد الجزائرى بعد ذلك «محفل الشام» الذى كانت الماسونية فى مصر هى التى قامت بتأسيسه، وقد ورد لقبه فى إحدى وثائق الماسونية السوريه تعود إلى سنة ١٩٥١م/ ١٣٣٠هـ ش بصفة «القطب الأعظم»(٣٨).

وقد كتب «صفوة» إن جهود الأمير عبد القادر الجزائرى هى التى أدت فى الأساس إلى انتشار الماسونية فى سوريه، وتجمع مصادر الماسونية على أنه كان المشجع الأول والحارس الأمين للماسونية فى «بلاد الشام»(٣٩). وترى جريدة الأنوار أن عبد القادر الجزائرى كان له دور فعال فى تأسيس محافل الماسونية فى الشرق وخاصة فى دمشق وذكرت أنه ربما كان هو أيضا الذى لعب دوراً أساسياً فى تأسيس وإنشاء محفل الماسونية فى بيروت فى سنة ١٢٧٩هـ/ ١٨٦٢م(٤٠). ومن النشاطات الماسونية الأخرى التى قام بها عبد القادر الجزائرى إقامته لحفل استقبال على شرف وفد ممثل للمحافل الماسونية كان يتكون من خمسة وعشرين عضواً جاءوا جميعاً من مدينة أمبواز – مكان السجن الثالث لعبد القادر فى فرنسا – وكان ذلك يوم السادس والعشرين من أغسطس ١٢٨٢هـ/ ١٨٦٥م. وحضر بنفسه الجلسة التى عقدت بعد ذلك التاريخ بعدة أيام ٣٠ أغسطس ١٢٨٢هـ/ ١٨٦٥م فى باريس(٤١).

يعتبر انضمام عبد القادر الجزائرى للماسونية الفرنسية أعظم انتصار حققته فرنسا لسياستها الاستعمارية. فقد كان محفل «المشرق الأعظم الفرنسى» من مؤيدى الإمبراطورية الفرنسية

وحماتها وكان «الأساتذة العظام» لهذا المحفل المركزى فى خدمة نابليون الثالث (حكم فيما بين ١٢٦٩هـ / ١٨٥٢م: ١٢٨٧هـ/ ١٨٧٠م) ونظراً للظروف السياسية التى كانت تعيشها فرنسا وعلاقة هذه الظروف بالجزائر اشتد التفكير فى استغلال عبد القادر الجزائرى بأساليب مختلفة. فقد دار الحديث بين الساسة الفرنسيين حول تنصيبه كإمبراطور لأرض العرب» على جزء من بلاد الشرق – فيما بين تركيا ومصر – كان الفرنسيون لا يريدون لها أن تكون تحت سيطرة العثمانيين(٤٢).

كما أجمع بعض الساسة الفرنسيين على أنه يجب أن تقوم الحكومة الفرنسية بمنح عبد القادر الجزائرى شكلاً من «نيابة السلطنة على الجزائر» ويتم إعادته إليها مرة أخرى(٤٣). وفى الحقيقة كانت السياسة الفرنسية وبالطبع الماسونية التابعة لها تحاول جاهدة أن تدفع عبد القادر الجزائرى إلى إنكار «القومية العربية» وهى الشيء الذى حارب بشدة لسنوات طويلة فى سبيله، وكانت تحاول أن تجعل من عبد القادر الجزائرى دمية فى تمثيلية سياسية وذلك تحت ستار الإنسانية الماسونية. وكان هذا فى الحقيقة من الأشياء التى ظل عبد القادر دائما يقف فى مواجهتها، وكما قال هو بنفسه إنه لا يريد أبدا أن يفعل شيئا لا يتناسب مع ماضيه العريق(٤٤).

وما يجب أن نقوله هنا هو أن الجزائر بعد اعتقال عبد القادر الجزائرى لم تهدأ أبدا ولم يستقر لها قرار تحت سيطرة الاستعمار الفرنسى. فاحتلال الأراضى الشاسعة، وسلب الملكية من ألاف المزارعين الجزائريين، والاستغلال المجحف والمستمر قد دفع الشعب المقهور المظلوم إلى أن يقوم بثورات دموية. فمنذ عام ١٢٦٦هـ/ ١٨٤٩م. برز زعماء عديدون من بين جماهير الشعب وأخذوا فى تنظيم الثورات فى مواجهة القوات المستعمرة فحركة «بوزين» وحركة «بونجلة» فى سنوات ١٢٢٦هـ/ ١٨٤٩م – ١٢٦٨هـ/ ١٨٥١م، وثورات قبائل «بنى سناسن» و»أولاد سيدى الشيخ» فى سنوات ١٢٧٦هـ/ ١٨٥٩م، ١٢٨١هـ/ ١٨٦٤م. يمكن أن نعتبرها نماذج واضحة للقلق والفزع والرعب الذى عاشه المحتلون الفرنسيين فى أرض الجزائر. وفى سنة ١٢٨٨هـ/ ١٨٧١م. ظهرت ثورة أخرى واسعة النطاق بزعامة «محمُد مُقرانى» وجهود متتابعة من أسرته. وبعدها بعشر سنوات فى ١٢٩٩هـ/ ١٨٨١م. تم تنظيم ثورة جادة أخرى بزعامة «بو عمامة»(٤٥).

ومن الأفضل أن نذكر أن ثورة ١٢٨٨هـ/١٨٧١م كان لها أهمية خاصة فقد كانت فرنسا فى سنة ١٢٨٧هـ/ ١٨٧٠م متورطة فى حرب مع بروسه انتهت بإلحاق الهزيمة بفرنسا. وذكر «جميل أبو النصر» أن الشعب الجزائرى كان دائما يأمل فى هزيمة فرنسا من البروسيين، وكان يرى فى هذه الهزيمة بصيص أمل فى حصوله على الاستقلال والحرية، ومن ناحية أخرى سرت اشعاعات بأن الأتراك العثمانيين سوف يقومون بهجوم على الجزائر وقوات الاحتلال الفرنسية فيها. وأن محى الدين نجل عبد القادر الجزائرى سوف يعود إلى الجزائر

ليقود حركة المقاومة الجزائرية ضد الفرنسيين، كما ذكر «جميل أبو النصر» أيضا أن ثورة ١٢٨٨هـ/ ١٨٧١م قد راح ضحيتها ٢٦٨٦ جندى فرنسى وعدد أكبر من ذلك من الشعب الجزائرى(٤٦).

ويبدو أن الحكومة الفرنسية قد استغلت فى هذه الأحداث والوقائع اسم عبد القادر الجزائرى ومكانته وماضيه المشرق لكى تخطط لعملياتها الاستعمارية ولكى تسحق كل هذه الثورات التى ذكرناها. فقد كتب أحد الباحثين أن عبد القادر الجزائرى طلب من شعب الجزائر أن يستسلم للفرنسيين(٤٧). وطبقاً لما كتبه كتاب التاريخ فقد قام الفرنسيون بطبع رسائل باسم عبد القادر الجزائرى، مستندين فى ذلك إلى أنه أدان بشدة ابنه الذى كان يريد أن يشترك فى ثورة ١٢٨٨هـ/ ١٨٧١م. ليثير قبائل قسنطينة الجنوبية فى الجزائر لمواجهة الفرنسيين واستعادة الجزائر منهم فى النهاية وأن عبد القادر الجزائرى اعتبر ابنه هذا عاقاً وتبرأ منه، ولكن هؤلاء المؤرخين يعتقدون أن تلك الرسائل مزيفة وغير صحيحة وأنها صدرت أساسًا من المخططين للسياسة الاستعمارية الفرنسية(٤٨). يقول «كداش» إن تلك الرسائل المزيفة قد تمت طباعتها حتى لا يدرك أحد أنها مزيفة إلى أن يثبت بالفعل كذبها وأنها منتحلة عليه(٤٩) ولكى تكون نتيجتها الفورية توجيه ضربة نفسية وروحية للثوار الجزائريين وإضعافهم فى مسيرة المعركة الدامية أمام الفرنسيين. وإذا ما نظرنا لكل هذه الأحداث يتضح لنا أن هدف الماسونية المؤيدة للحكومة الفرنسية والمتعاونة مع حكومتها كان العمل على اعتناق عبد القادر الجزائرى لما تسميه «الحرية والمساواة والإخاء» وأنهم اجتمعوا على استغلال نفوذ عبد القادر الجزائرى وشخصيته المعنوية لإخماد مثل هذه الثورات والتمردات وذلك بضم هذا الزعيم الثورى الروحى السابق للشعب الجزائرى إلى صفوفهم.

كان عبد القادر الجزائرى نفسه على علم بأن الماسونية لها سمعة سيئة فى الشرق حتى أنه قيل إن الماسون فى رأى شعوب الشرق بشكل عام يعتبرون أناساً لا دين لهم ولا مذهب وبلا إله أو قانون وأنهم على استعداد لأن يقوموا بنشر الفوضى فى أى مجتمع بالقضاء على نظمه وتقاليده(٥٠) ومع هذا كله فإنه يبدو أن عبد القادر الجزائرى ظل حتى فى أواخر سنيّن حياته يظهر وداً وتعاطفاً للماسونية. فقد توجه شاهين مكاريوس الماسونى العربى النشط عندما كان يشغل منصب أمين أحد المحافل الماسونية باسم «محفل لبنان» إلى دمشق فى سبتمبر سنة ١٨٨١م/ ١٢٩٨هـ - أى قبل وفاة عبد القادر بعامين – وقام بزيارته فى منزله ويذكر عن هذه الزيارة «لقد أخذنى عبد القادر إلى جانبه وأخذ يسألنى عن الإخوة الماسون و»محفل لبنان» كما أخذ يثنى على نشاطى الماسونى»(٥١).

لكن الأستاذ كداش يعتقد أن عبد القادر لم يحقق كماسونى آمال المنظمة الماسونية وأهدافها ونشاطه فى مجال الماسونية كان قليلاً للغاية فعلى سبيل المثال لم يحضر الحفل الذى أقامه على شرفه «محفل هنرى الرابع» بتاريخ أغسطس ١٨٦٥م/ ١٢٨٢هـ ولم يكن يحضر الجلسات

التى كان يعقدها محفل سوريه ومحفل الشرق بدمشق رغم أن هذين المحفلين منحاه عضويتهما الشرفية. بالإضافة إلى هذا فإن عبد القادر الجزائرى لم يتحدث مطلقاً حول علاقته بالماسونية، ولم يتدخل فى إخماد فتنة سنة ١٢٨٨هـ/ ١٨٧١م التى حدثت فى الجزائر ليأخذ دور السعى نحو التصالح الذى كان ينتظر منه أن يقوم به إلى درجة أن أحد الماسون قام بتعنيفه لأنه لم يبد أى رد فعل فى هذا الموضوع. ويقول كداش إن البابا قام بإدانة المنظمة الماسونية فى عام ١٨٢٨هـ/ ١٨٦٥م لأنه كثيراً ما كان يحدث هجوم فى المحافل الماسونية ضد الزعماء الدينيين، وأخذت هذه المنظمة شيئاً فشيئاً تأخذ طابع مناهضة الدين. وبالإضافة إلى هذا وكما ذكرنا من قبل فقد أعلن فى سنة ١٢٩٤هـ/ ١٨٧٧م مبدأ عدم ضرورة الاعتقاد فى وجود إله بالنسبة لأتباع الماسونية والمنضمين إليها، ويرى كداش أن هذه الصفات والمبادئ لم تكن تعجب عبد القادر إلى حد كبير، فهو لم يستطع أن تكون له عضوية فى منظمة تقوم بمهاجمة الأسس والمبادئ التى تقوم عليها الأديان، فعبد القادر الذى أبدى صموداً فى مواجهة الضغوط السياسية ربما كان قد أدرك الأخطار والاضطرار الناجمة عن استغلال مكانته وشخصيته المعنوية وكرامته واعتباره فى مثل هذه الألعاب والتمثيليات التى تتظاهر بالإنسانية ومحبة البشر، وربما كان على وعى بأن مثل هذه الألاعيب سوف تدفعه فى النهاية للقيام بدور كان يعلم مدى ما سينتج عنه من أخطار شديدة على رأسها جميعاً أن هذا الدور سوف يتسبب فى طمس ماضيه المشرق. ويضيف كداش إنه ربما استناداً لكل هذه الأسباب والعوامل لم يبد عبد القادر الجزائرى نشاطاً ملحوظاً فى مجال الماسونية(٥٢).

مسايرة عبد القادر الجزائرى لبلانت الإنجليزى فى مسألة الخلافة العربية:

فى رأينا أن عبد القادر الجزائرى كان موحداً لله وعلى إيمان صادق ولم يكن يجيز محاربة الأديان، وكان يحب وطنه الجزائر حباً شديداً والعالم العربى والإسلام. ولكن هذه الصفات لا تسوقنا بالضرورة لأن نستنتج أنه كان يتحرز من الانضمام إلى الماسونية وسوء السمعة الذى يكتنفها. وإذا كان الأمر كذلك لما حدث مطلقاً ما نسبه إليه كل من صفوة ومكاريوس وجريدة الأنوار ـ فى حالة ما إذا كان هذا حقيقة بالفعل ـ ولكان قد أعلن رسمياً اعتزاله للماسونية أو حتى إدانته لها على الأقل فعلى حد علمنا لم يأخذ هذه الخطوة بالفعل فعندما كان يمضى فترة تقاعده فى دمشق كان دائما ما يبدى من جانبه سلوكاً متصالحاً وروحاً من التعاون والمساعدة تجاه الغرب. والدليل على سلوكه هذا لا يحده فقط إطار التدخل فى ثورة دمشق سنة ٧٧-١٢٧٦هـ/ ١٨٦٠م أو الانضمام إلى الماسونية. لكن هناك مثال آخر أكثر وضوحاً على اتسامه بروح التعاون والمساعدة لمخططات الأوروبيين السياسية واستعداده لتنفيذ جانب من الخطط المعقدة التى وضعها بلانت الإنجليزى فقد دخل ويلفرد اسكاون بلانت (١٣٤١-١٢٥٦هـ/ ١٩٢٢-١٨٤٠م) (Wilfred Cawen Blant) إلى مجال الخدمة الدبلوماسية فى سنة ١٢٧٥هـ/ ١٨٥٨م وخدم فى هذا المجال فى كل من أثينا ومدريد وباريس ولشبونة

وأمريكا الجنوبية على التوالى، وكان يعد شاعراً منتمياً إلى الطبقات العليا ومن المتحمسين للقومية الإنجليزية التقليدية، ولكن طبقاً لقول الأستاذ حورانى «كان المحرك الأول له هو نظرية الإمبريالية الجديدة» ولم يكن على وفاق إلى حد ما مع الحضارة الميكانيكية للقرن التاسع عشر(٥٣)، ولهذا السبب لم يكن يبدُ انسجاماً أو مسايرة من جانبه مع المعركة الاستعمارية للحكومة الإنجليزية فى الهند(٥٤) وايرلندا ومصر. وكان على تعلق خاص بالحياة البدوية التى يحياها العرب البدو وقضى سنوات طويلة فى سوريه ومصر وفى صحارى المملكة العربية السعودية وكتب أبحاثا حول جوانب من العالم العربى(٥٥). لكن يجب علينا أن نشير إلى أنه كان على علاقة قوية وصداقة حميمة بالعلماء والمفكرين العرب من ناحية كما أنه كان على نفس العلاقة القومية والحميمة من ناحية أخرى بالشخصيات التى كانت تحكم إنجلترا – مثل جلادستون (Gladstone) رئيس الوزراء الإنجليزى فى سنوات ١٢٩٨-١٣٠٣هـ/ ١٨٨٠-١٨٨٥م وكان له نشاطات واسعة المجال فى مسائل وقضايا عديدة مثل ثورة عرابى باشا فى مصر، وحركة المهدى السودانى، ونهضة الإسلام الشامل فى تركيا ومسألة تأسيس خلافة عربية – إسلامية. وكان على اعتقاد بأن الحكومة الإنجليزية على العكس من باقى الأوروبيين الذين يكنون العداء للإسلام تعتبر صديقة حميمة للإسلام والمسلمين وحارسة محافظة على الخلافة العربية – الإسلامية وسند معين للإسلام(٥٦).

وكانت رغبة بلانت فى طرح حركة الإسلام الشامل يحدوها عملياً أن تكون إنجلترا هى المحركة لهذه الحركة والمتزعمة لها. وكانت رغبة بلانت فى طرح حركة الإسلام الشامل يحدوها عملياً أن تكون إنجلترا هى المحركة لهذه الحركة والمتزعمة لها. ويذكر بلانت فى مذكراته الخاصة حول هذا الموضوع أنه جلس لمناقشة الأمر مع سيد جمال الدين الأفغانى (الأسد آبادى) وراندولف تشرشل Randolf Churchil وزير شئون الهند فى وزارة الحكومة الإنجليزية ودارموند وولف Drumond wolf وكان ذلك فى لندن. ويذكر بلانت فى مذكراته الخاصة حول هذا الموضوع أنه جلس لمناقشة هذا الموضوع مع سيد جمال الدين الأفغانى (الأسد آبادى) وزير شئون الهند فى وزارة الحكومة الإنجليزية وراندولف شرشل (Randolf churclil) وكان ذلك فى لندن سنة ١٣٠٣هـ/ ١٨٨٥م واتفقوا على أن يذهب سيد جمال الدين برفقة وولف إلى استانبول وأن يقوم الاثنان بمناقشة قادة حركة الإسلام الشامل للسلطان عبد الحميد الثانى حول «حلف للتنسيق بين الإنجليز والإسلام» ولأسباب ما لم يتم تنفيذ المشروع(٥٧). ومن هذا المنطلق تماماً حاول بلانت أن يستغل مكانة وموقع الأمير عبد القادر الجزائرى.

لقد كان بلانت على علم بأن عبد القادر الجزائرى له نفوذ فى شئون العرب أكثر من أى شخص آخر فى دمشق وأنه بشكل عام يتمتع فى سوريه بمكانة عالية للغاية وله أتباع كثيرون، ومن المحتم أنه كان على علم بتدخل عبد القادر فى أحداث ١٢٧٦-١٢٧٧هـ/ ١٨٦٠م فى دمشق ولم يكن يجهل علاقته بالماسونية، وربما من هذا المنطلق أيضا وجد فيه هو وابنه هؤلاء

التحرر بين الذين يعارضون ويخالفون الأفكار والأنشطة الرجعية التى يؤيدها السلطان عبد الحميد. ولأن بلانت كان يتوقع قيام اضطرابات فى سوريه ضد السلطان عبد الحميد فقد بحث مع محمد بن الأمير عبد القادر الجزائرى فكرة إعلان خليفة للمسلمين من أصل عربى. لقد أدرك بلانت أن عبد القادر الجزائرى وابنه مثلهم فى ذلك مثل باقى الزعماء الدينيين العرب يرغبون فى إقامة خلافة عربية – إسلامية، ووجد فى عبد القادر أصلح رجل عربى لشغل هذا المنصب، ومن هذا المنطلق اقترح عليه وبإصرار من ابنه أن يرشح نفسه لمنصب الخلافة، وقبل عبد القادر ذلك، وبعد مباحثات ومناقشات اتفقوا على ان يقوم بلانت ببحث هذا الموضوع مع الحكومة الإنجليزية، وقد اتصل بلانت بجلادستون رئيس الوزراء الإنجليزى عن طريق سكرتيره الخاص السيد هاملتون (Hamilton) وطلب منه الرأى حول استعداد الأمير عبد القادر الجزائرى لقبول منصب خلافة عربية – إسلامية، لكنه لم يرد رداً شافياً على اقتراح بلانت لأن مثل هذا المخطط لم يكن فى ذلك الوقت جديراً بأن يبحث أصلاً(٥٨).

وهكذا كانت روح التعاون والمساندة التى اتسم بها عبد القادر الجزائرى مع أهداف ومطالب الحكومات الغربية سبباً لأن يساير مخطط إنشاء خلافة عربية – إسلامية ذلك المخطط الذى كان مؤيداً من قبل قطاع من الجهاز الحاكم فى إنجلترا. ولكن يبدو أن عبد القادر لم يكن له روح احترازية فى مسيرة هذه الأحداث والمعارك السياسية والماسونية، ولم يكن يريد أن يخطو خطوة إلا فى طريق المصالحة والإصلاح وما هو صحيح وسليم من وجهة نظره. إن شعب الجزائر يعرف عبد القادر الجزائرى بهذه الصورة وكان ومازال يعتبره زعيماً عظيماً ومجاهداً ومؤسساً للحركات المناهضة والمكافحة للاستعمار فى بُلاده.

هوامش الفصل السابع

١- جرجى زيدان، تراجم مشاهير الشرق فى القرن التاسع عشر (القاهرة، ١٩٢٢)، الجزء الأول، ص١٥١.

٢- Anonymous, «Abd el-Kader», EB, vol ١ (١٩٦١), P. ٢٨.
لمقارنة ومقابلة التواريخ المختلفة والمتناقضة انظر: زيدان، مشاهير الشرق، الجزء الأول، ص١٥١.

٣- روبر آزرون، تاريخ معاصر الجزاير، ترجمة منوجهر بيات مختارى (مشهد، بى تاريخ)، ص٢٠-١٩.

٤- على من يرغب فى الاطلاع على بحث مطول حول نشاط عبد القادر الجزائرى وحروبه وأفكاره وكتاباته أن يرجع إلى: محمد بن الامير عبد القادر الحسنى، تحفة الزائر فى مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر (الإسكندرية، ١٩٠٣م)، فى جزءين. وهذا الكتاب ألفه ابن الأمير عبد القادر ويحوى موضوعات مهمة وقيمة، والجزء الأول منه يدور حول حروب عبد القادر الجزائرى، أما الجزء الثانى فهو فى الكتابات والمؤلفات التى خطها بقلمه.

٥- انظر: لوتسكى، تاريخ عرب در قرون جديد، ص٢٥٢-٤٢٦٧؛ بيترز، إسلام واستعمار، ص٧٥-٨٣.

٦- زيدان، مشاهير الشرق، الجزء الأول، ص١٥٧.

٧- Ph. de cossé-Brissac, «Abd al-Kadir b: Muhyi al-Din al-Hasanc», Ei٢ vol. ١ (١٩٦٧), PP. ٦٧-٦٨.

٨- S.L., «Abd al-Kader», La Grande Encyclopédie, vol. ١ (١٩٧١), p. ١٨.

٩- Anonymous, «Abd el-kader», P. ٢٨.

١٠- زيدان، مشاهير الشرق، الجزء الأول، ص١٥٧-١٥٨.

١١- هذا الكتاب تم ترجمته إلى اللغة الفرنسية ونشر تحت هذا العنوان:
Rappelá l>intelligent, Avis a l>inalifférant (٨٥٨).

١٢- زيدان، مشاهير الشرق، الجزء الأول، ص١٥٩.

١٣- محمد كامل حسن المحامى، قيام امير عبد القادر الجزائرى، ترجمة صادق آئينه وند (تهران، ١٣٥٩ س)، ص٤٧.

١٤- S.L., «Abd el-Kader», P. ١٨.

١٥- M.E., «Abdel Kader», The New Encyclopaedia Britannica: Macropaedia, Vol. ١ (١٩٧٧), P. ٨.

١٦- Cossé-Brissac, «Abd el-Kadir», P. ٦٨.

١٧- حماده، شهادات ماسونية، ص٨٨.

١٨- «Abd el-Kader à Pau».

١٩- Marcl Emerit, «Abd al-Kader Frac-Maçon», L> Information Historique (Janvier-fevrier ١٩٦٧), ٢٧-٢٨.

٢٠- Xavier Yacono, «Abd el-Kader Franc-macon», L>Information

.١١٧-١١٦ ,(١٩٦٧ Historique (mai-Jiun
٢١- Antonius, the Arab Awakening, PP .٥٨-٥٧.
لمعلومات أكثر حول أحداث سوريه ولبنان فى سنتى ١٨٦١/١٨٦٠م ومعركة (الفرنسيين) (فرانسويان) مدعمة بالوثائق التاريخية انظر:
Jobin, Le Syrie en ١٨٦٠ et ١٨٦١ (Lille, France, ١٨٦٢).
٢٢- Cossé Brissac, «Abd al-Kadir», P .٦٨.
٢٣- زيدان، مشاهير الشرق، الجزء الأول، ص١٥٨-١٥٩.
٢٤- S.L., «Abd el-Kader», P .١٨.
٢٥- زيدان، تاريخ الماسونية، ص١٦٦.
٢٦- Mahfoud Kaddache, «Abdel Kader Franc-Macon» Revue d>Historie et civilsation du Maghel, no. ٣ (Juillet ١٩٦٧), P. ٨٨.
٢٧- نفسه، ص٨٨-٨٩.
٢٨- Yacono, «Abd el-Kader», P .١١٧.
٢٩- Kaddache, «Abd el Kader», P .٨٩.
٣٠- نفسه، ص٨٩.
٣١- R.A., «France-Maconnerie», la Grande Enoyclopédie, Vol. ٩ (١٩٧٤), P. ٥١٦٢; Kuolsi-Zadeh, «Afghani and Freemasonry», P .٢٩.
٣٢- Kaddache, «Abd el Kader», P .٩٠-٩٢.
٣٣- الوردى، لمحات اجتماعية، الجزء الثالث، ص٣٦٩.
٣٤- الفت، فراماسونرى چيست؟ جلديكم، ص٥٢-٥٣.
٣٥- Emerit, «Abd el-Kader», P .٢٨.
٣٦- نفسه، ص٢٨.
٣٧- انظر الفصل السادس من هذا الكتاب.
٣٨- حماده، شهادات ماسونية، ص٥١؛ صفوة، الماسونية، ص٣٠-٣٤.
٣٩- نفسه، ص٣٠.
٤٠- حماده، شهادات ماسونية، ص٨٨.
٤١- Kaddache, «Abd el-Kadęr», P .٩٢.
٤٢- M.E., «Abd el-Kader», P .٨.
٤٣- S.L., «Abd el-Kader», P .١٨.
٤٤- Kaddache, «Abd el-Kader», PP .٨٩-٩٠.
٤٥- لوتسكى، تاريخ عرب در قرون جديد، ٢٦٧، ٢٦٨، ٢٧٣؛
M. Emerit, «Algeria», ٣-After ١٩٣٠, EI٢, vol. ١ (١٩٦٧), P. ٣٦٩.
٤٦- Jamil M. Abun-Nasr, A History of the Maghrib (Cambridge, ١٩٧٥), PP. ٢٥٣-٢٥٥.
٤٧- Anonymous, «Abd el-Kader».
٤٨- M.E., «Abd el-Kader», P .٨; S.L., «Abd el-Kader», P .١٨.
٤٩- Kaddache, «Abd el-Kader», PP .٨٩-٩٠.

٥٠- نفسه، ص٨٩.
٥١- صفوة، الماسونية، ص٣٠.
٥٢- Kaddache, «Abd el-Kader», P .٩٣.
٥٣- Howani, Arabic thought, P .١١٠.
٥٤- Wilfrid Scawen Blunt, Ideas about India (١٨٨٥).
٥٥- Edith Finch, Wilfrid Scawen Blunt ١٨٤٠-١٩٢٢ (١٩٣٨).
٥٦- لمعلومات حول آرائه هذه انظر:
Wilfrid Scawen Blunt, The Future of Islam (London ,١٨٨٢), ٢ Chapters ,٤-٥.
٥٧- Edward G. Browne, The Persiocn Revolution of ١٩٠٥-١٩٠٩ (Camridge ,١٩١٠), P. ٤٠٣.
٥٨- Blunt, Occupation of Egypt, PP .١١٦-١٩.